تقديم

متفرقات على رف الجد

فى هذه المجموعة عرض لخمسة كتب فى موضوعات متفرقة تجمع بينها خصلة واحدة وهى أنها جميعا من روائع (رف الجد) التى يعاد النظر فيها حينا بعد حين ، وان دواعى العودة اليها تزداد فى الحقبة الحاضرة ، كلما خطرت للمطلعين خواطر المقارنة بينهـا وبين نظائرها من بابها – فى مطالعات الجيل الأخيرة ٠

أولها كتاب « التقدم والفقر » للكاتب المصلح الأمريكى الذى توفى قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، وقد كانت له – كمـا يعرف قراؤه الكثيرون – فلسفة ضافية فى شئون الاجتماع والاقتصـاد ، ظهرت فى جيل واحد مع فلسفة كارل ماركس المشهورة باسم التفسير المـادى للتاريخ ، ودارت على موضوع كموضوعها فى أصولها وفروعها ٠ وكلتا الفلسفتين تعودان الى النظر اليوم للمراجعة والاعتبار ، بعد امتحـان النبوءات التى وردت فيهما ثلاثة أرباع القرن على وجه التقريب ٠

والكتاب الثانى قصة من قصص الروائى الكبـير هنرى چيمس ، هى أكمل قصصه وأحبها اليه والى قرائه ، وهى قصة «السفراء» ٠ والعودة الى هنرى چيمس فى السنوات الأخيرة خاطرة عالمية من وحى الأدب ومن وحى التاريخ فى وقت واحد ، لأن قصص چيمس كانت فى عهدها هى القنطرة الأولى بين العالم الجديد فى عزلته والعالم القديم فى طور الحياة العالمية الحديثة ، وليس أمتع من عبور هذه القنطرة مرة أخرى بعـد أن أصبح العالم الجديد فى طليعة القوى التى تضطلع بمهام الحياة الدنيوية الشاملة ٠

والكتاب الثالث فى المجموعة هو مسرحية « الأب » للكاتب الشاعر

السويدى أوجست سترندبرج ، وهو كما يعلم المشتغلون بالمسرح رائد المذهب التعبيرى فى فنون التمثيل والصور المتحركة. ومذهبه - أيضا - قنطرة بين دور التطرف الأول فى الخروج على التقاليد ودور التطرف الأخير فى اعتساف الطريق المجهول الى ما يسمونه بالمسرح الجديد ، ويسميه بعضهم بمسرح اللامعقول .

والكتاب الرابع هو كتاب أوليفر وندل هولمز الذى سماه بالأوتوقراطى أو « السيد العميد على مائدة الافطار » وهو مرجع من مراجع « فن الحديث » يعود اليه المستمعون للأحاديث بشىء غير قليل من لذة التشوف والاستطلاع ، بعد أن أصبحت الأحاديث المسموعة برنامجا عاما تتلاقى عليه مصادر الاذاعة فى كل مكان .

وتختتم المجموعة بسفر من أسفار العلم والفلسفة شاع فى عهده شيوعا لم يرزقه كتاب آخر بعد كتاب «أصل الأنواع» الذى شرح فيه دارون مذهبه النشوء والتطور ، وهو بعينه موضوع الكتاب الذى ختمت به هذه المجموعة لمؤلفه الفيلسوف الانجليزى الأشهر هربرت سبنسر ، واسمه « المبادىء الأولى » أو الأصول الأولى ، شرح فيه مذهبا فى التطور والتقدم ذهب اليه قبل فراغ دارون من بسط مذهبه فى النشوء والتطور بسنوات .

ويعرف قراء العلوم السياسية أن سبنسر هو رسول الشخصية الانسانية ، أو رسول « الفردية » Individualism فى السياسة والتفكير. وتعد مذاهب « الوجودية » التى تتوالى اليوم فى عالم التفكير والحياة الاجتماعية تطبيقا للمبادىء التى نادى بها هذا الفيلسوف فى هذا الكتاب وأطال شرحها فى كتابيه عن التعليم وعن الانسان والدولة ، لأن مذاهب الوجودية تقوم جميعا على تقرير « وجود الفرد » الصحيح وسبقه لوجود الأنواع التى لا وجود لها - فى الخارج - بمعزل عن وجود الأفراد .

ويبدو من هذه الخلاصة عن هذه الكتب الخمسة أنها على « رف الجد » من أصلح ودائعه لاعادة النظر فيها ، وللمقابلة بينها وبين نظائرها من مطالعات هذا الجيل : جيل الابن والحفيد .

عباس محمود العقاد